تأليف: ملك مدحت أبو العزم
لماذا
يا
سهاد؟

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ(٥)

سورة الفلق

عالم يسكن فيه الحاسد عالمًا مظلمًا تغلفه طيات الغيرة والجشع ، هل هي طبيعة النفس البشرية التي تتجسد فيها الأنانية و الحقد أم أنه يكتسبها بمرور الزمن إنه ذلك الحسد كالظلال تعم الأروقة والأفكار هل ينعم المجتمع بالسلام والوئام حين يمتلئ قلب البشر بالحسد الذي يفتك بالعلاقات ويعمي الأفق؟

ملك أبو العزم

أناس جدد، أصدقاء جدد، مكان جديد، بداية جديدة، يبدو أنني سأنتصر من جديد، سأصبح محط الاهتمام في هذا المكان، سأكون مثال يؤخذ به عن المثالية. لا أظن أنكم خمنتم أين ستبدأ هذه البداية الجديدة. المكان الذي يظنه البعض أنه الجبل الذي سيتسلقونه مهما حدث ليروا العالم، ولكنها أيضا المكان الذي يظنه البعض الرياح التي تطفئ شمعة مشتعلة، فينطفئ شغفهم ناحية الحياة. هل عرفتم ما هو هذا المكان؟ نعم، إنه المدرسة إنه بداية عام دراسي جديد في مدرسة جديدة . أعلم أنكم توقعتم مكانًا آخر، ولكن لا أظن أنني أجد نفسي إلا في هذا المكان. هل تريد أن تعرف المزيد عني؟ لا أنصحك بهذا، ولكن إن كنت ستكمل قراءة هذه القصة فأتمنى لك رحلة آمنة، سأشارك لكم الأمور العجيبة والتي تحدث معي. انتبه! قد لا تعجبك هذه الأمور. لقد حذرتك! أنت حر.

لم أكن أريد مشاركة هذا الجزء مني ولكن أردت أن أثبت لكم مقولة "إن الإنسان لا يتخذ قراراته إلا وهو متأثر ببيئته وظروفه الاجتماعية والثقافية." عندما أسمع كلمة "ماما"، يتبادر إلى ذهني الحنان والدفء، ولكن للأسف، لم يكن واقعي متماثلًا لتلك الصورة النمطية. بالنسبة لي، كانت كلمة "ماما" تثير في قلبي الألم والخوف، فلم أشعر بالطمأنينة بحضورها، بل كنت أراها كالوحش يريد أن يأكل دواخلي. أحسد أحيانًا الأطفال الآخرين لما يمتلكونه من علاقة حميمية مع أمهم.

ولكن على الرغم من كل هذا، أدركت أنني محظوظة لأنني لازلت أملك أمًا. وعلى الرغم من التحديات التي واجهتني، فإنني ممتنة لهذه النعمة. وعندما يأتي اليأس ليغمرني، أتذكر دائمًا قوله تعالى "لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا".

وفي أحيان كثيرة، أتساءل إذا ما كانت أمي نعمة أم نقمة؟ هل سأصبح أنا أيضًا شخصاً مثلها؟ هل سأكرر أخطاؤها و أسبب الأذى لمن حولي؟ وهذه الأفكار تثير في عقلي الكثير من الشكوك والتساؤلات، وأتساءل دائمًا عن حقيقة ما يحدث ولماذا.

أحاول التعايش في مدرستي الجديدة وأن أتعرف على بعض الأصدقاء الذين لعل وعسى أن ينسوني همومي التي أعيشها كل يوم، و التي لا أظن أنه من السهل نسيانها. إنها الحصة الأولى، تدخل معلمتي وكانت تبدو حقاً أنها طيبة القلب. يجب أن أتوقف هنا. لا يجب علي أن أحكم على الكتاب من غلافه. لا يجب أن أكرر نفس الخطأ مرة أخرى.

سألتها عن اسمها، قالت بصوت شجي حنونًا يحمل أنغامًا عميقة، ويميل في الوقت نفسه إلى البحة الهامسة: "هممم، يبدو أنك طالبة فضولية، لم تمر لحظة على دخولي للصف وتسأليني عن اسمي". وبدت تضحك ضحكاتٍ خفيفةً ورقيقةً، وقالت بالمناسبة: "إسمي ترف". يا له من اسم جميل، أتمنى أن يكون اسمًا على مسمى. فأتمنى أن تشبعنا بعطائها غير المتناهي.

قابلتني فتاة قد كانت جميلة جمالًا لم تقع العين على شبيه لها في أي مكان، ولم تروي القصص والأساطير عن مثيل لها. معتدلة القوام، لا نقص فيها ولا زيادة، كانت كغصن البان. أنفها دقيق صغير كأنها من الأميرات. هل يا ترى ما داخلها جميل كخارجها؟ يشغلني هذا السؤال. لا أعرف رغم قالبها الجميل، ولكن صوتًا داخلي يهمس بالشكوك والاستغراب. لم أشعر بهكذا من قبل، ولكن سأتجاهل هذا الصوت، فقد تجاهلته كثيرًا في الماضي ولم يضرني.

ينبعث من عينيها بريقًا يشع بالأمل والحنان، وحينما قالت لي أنها وحيدة وليس لديها أصدقاء، تساءلت عن كيف يمكن ذلك، ولكن هذا الشعور بالوحدة يجتاحني أيضًا. هل ستكون هي رفيقة دربي؟ هل ستصبح صديقتي التي أحتاج إليها في كل حين؟ هل سنشارك الذكريات ونمضي أفضل الأوقات معًا؟

الأسئلة تدور في ذهني، ولكنني لا أجد إجابات لا أظن أنني سأستطيع التعرف عليها بماذا اشعر دائما أنني الطرف المخطئ دائمًا؟ هل أنا سبب الفشل في علاقاتي؟ لا أعلم، ولكن الشعور بالاستسلام يلازمني في كل لحظة.

تعرفت عليها، كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي أدركت فيها أنني لست وحدي، وأن هناك شخصًا يهتم بمشاعري ويساندني في لحظات الضعف. انطلقت ابتسامة من شفتي، ابتسامة تجاوزت الحزن واليأس، فقد كانت هدية من السماء تعبر عن شكري وامتناني لهذه اللحظة الساحرة.

كانت لقاءً يعيد الحياة إلى قلبي المتألم، وكتابًا يحمل عنوان "أنا"، حيث تمتزج فيه مشاعري بالكلمات الصادقة والمؤثرة، وأدركت فيها أن الحياة لا تزال مليئة بالأمل والحب، حتى في أصعب اللحظات

بعد مرور الأسبوع الأول، لم أتخيل يومًا أن تتغير مشاعر الصداقة بيني وبين صديقتي (سهاد). بل ظننت أن مشاعر الصداقة التي بيننا ستبقى للأبد. بدأت حصة الرياضيات، وفي نهاية هذه الحصة، انقلب وجهي. لم أجب ولو على سؤال واحد في حصة الرياضيات. لم أرَ الا سهاد، وهي تجيب على جميع المسائل بدقة وبسرعة. شعرت ببركان في داخلي، أحاول إطفاؤه، لكن لم ينفع. تخيل أن تطفىء بركان عملاق هائج بقنينة ماء. هكذا كان حالي، فأنا أثق بقدراتي. أعلم أنني أفضل مما أتخيل. أتمنى أن يكون ما أقوله صحيحًا. لا أريد أن أتعرض لما تعرضت له من قبل. نعم، إنها أمي. لا أريد أن أكون مصدر عار لها، بل أريد أن أكون جوهرة لامعة في حياتها، تفتخر بها لكل من جاء وذهب.

سهاد، إنسانة طيبة تحب الخير لغيرها، وهذا ما يجعلني أفكر قبل أن أرتكب هذه المصيبة. تراودني أفكار غير محببة عدت للمنزل، وبدا وجهي شاحبًا. كان المنزل هادئًا أكثر من العادة. استمعت إلى أصوات غريبة. مهلا، هل تسمعون إلى ما أسمعه أنا؟ أصوات ضحكات مرعبة. ارتفعت أكثر فأكثر كلما اقتربت من المطبخ. ياللهول! لاااا!

هناك جسمًا غريبًا، ليس هذا فقط ما يخيفني، ما يخيفني هو نظراته التي بدت كأنها تبحث عن فريسته. اقترب أكثر وأكثر، أصبح قريبًا مني لدرجة أنني استمع إلى أنفاسه، التي بدت كصوت لثور هائج. كدت أن أهرب، ولكنني شعرت أنني مقيدة، لقد أمسك بي ماذا سأفعل الآن؟ (صراخ عالي)

استيقظت، وكانت نبضات قلبي أسرع من عداء يركض ليصل لخط النهاية. يا له من حلم فظيع! لقد عدت من المدرسة مباشرة إلى سريري. يا ليتني لم أنم أوف. إنها الساعة الثانية عشر صباحًا. كيف نمت كل هذه المدة؟ ذهبت لأقرأ بعض الكتب من خزانة أمي، التي وضعت فيها كتبًا كان يحبها جدي كثيرًا. لم يلفت نظري أحدهم، لكنني وجدت واحدًا بعنوان "كيف تكون الأفضل دائمًا". قلت في نفسي ماذا سأخسر؟ سأرى إن كان سيفيدني. كان الكتاب يبدو كأنه من العصر الحجري، قديمًا، ولم تلمسه يد إنسان منذ سنوات. لمحت عبارة في طرف الكتاب: "كل ما سيحدث لك بعد قرائتك لهذا الكتاب، أنت مسؤول عنه. احترس، فقدرته على التأثير تنبع من نواياك الخفية". ههه، كاتب هذا الكتاب مضحك جداً، يظن أنني سأخاف! لم يحالفه الحظ في اخافتي.

فتحت الصفحة الأولى، كانت فارغة. فتحت التالية، كانت فارغة أيضًا. يبدو أنني سأجد الكلام في الصفحة الثالثة، وإلا فستكون الرابعة، ربما الخامسة. قلبت وقلبت في الصفحات، و التي كانت فارغة أيضًا. غريب هذا الكتاب. لكنني لاحظت شيئًا، وجدت آثارًا بقلم رصاص ممسوحة على الصفحات. هه، يبدو أن الكاتب كتب الكلام لنفسه فقط. رغم أنني وجدت الأمر مضحكًا، إلا أنني شعرت بالغضب بعض الشيء. عندما يراودني الفضول تجاه شيء ولا أستطيع أن أعرف شيئاً عنه، أشعر بالغضب. ربما أمي تعرف ما كان مكتوبًا. ذهبت لأقوم بسؤالها.قلت لها: أمي وجدت هذا الكتاب و... لم أستطع أن أكمل كلامي، فقد قامت أمي بإسكاتي و سحبت الكتاب مني وذهبت للخلود للنوم، دون نطق أي كلمة. أشعر بداخلي أنه هناك سر كبير وراء هذا الكتاب. لا مشكلة، ليس هذا الكتاب الوحيد. فالعالم هناك كتب أفضل منه بكل تأكيد. لم أهتم للأمر.

انها الساعة الثالثة صباحًا، ولم يغلبني النعاس حتى الآن، وما زلت أفكر في ذلك الكتاب الذي قامت أمي بسحبه مني، ولم تعاتبني حتى. هل الكتاب يعلم شيئًا عن هذا العالم لا أحد يعلمه؟ مثير للاهتمام. كانت لحظة شعوري بالاهتمام بهذا الكتاب مصيبة على رأسي وعلى من حولي. أمي نائمة، حان الوقت للاستفادة من هذه الفرصة، ولكن بتأكيد قامت بتغيير مخبأ الكتاب. أمي بارعة في تخبئة الأشياء، ويبدو أن الكتاب مهم. يا ويلي! انها الساعة الرابعة، يجب أن أخلد للنوم قبل عودتي للنوم. استمعت لبعض الكلمات الغريبة، بدت كأنها طلاسم. ما أخافني هو أنني استمعت إلى اسمي بين هذه الطلاسم! ولكن لا يوجد أحد في البيت غيري ووالدتي. نعم، لقد نسيت قطتي، التي أحبها كثيرًا. انه ليس الوقت أن أصف مشاعري بقطتي. يجب أن أعرف مصدر الصوت. إنه قادم من المطبخ. ماذا! هل يعقل أن يكون حلما مجددًا؟ أتمنى ذلك، فالموقف الذي أنا فيه الآن لا يحسد عليه. هذه المرة، اخذت استعداداتي لمواجهة هذا الخطر الذي أنا فيه الآن. اخذت كرسيًا من غرفتي، وذهبت وأنا متأملة أن تكون هذه الطلاسم مجرد هلوسات تدور في ذهني. ما رأيته كان صادمًا. لم أتخيل أن أرى يومًا مشهدًا بتلك الفظاعة. أرى قطتي يسيل منها الأحمر. أصرخ بأعلى ما عندي. جاءت أمي وهي مفجوعة، ولكنها قامت بالصراخ ليس لأنني صرخت وأزعجتها، بل لأن المطبخ لم يكن به شيء.

كيف؟ كيف أنا متأكدة من رؤيتي لهذا المشهد الفظيع؟ كيف اختفى في لمح البصر بدا وكأنه حقيقي؟ ذهبت لأطمئن على قطتي، إنها بخير. كيف يمكن ذلك؟ تمر الساعات كالدقائق، إنها الساعة السادسة صباحاً الآن، حان الوقت للذهاب إلى المدرسة، لكني لم أنسى المشهد الصادم الذي شاهدته قبل قليل، ولا أظن أنني سأنساه. اما هذه الأحداث الغريبة، الأحداث الأغرب التي تحدث في مدرستي.

بدأت الحصة الأولى، إنها حصة اللغة العربية. كلما حاولت التكلم، تقوم إحدى الطالبات بمقاطعتي، إنها سهاد. يا له من أمر مزعج! عندما اختارتني المعلمة لأقوم بالإجابة على السؤال، قامت سهاد مرة أخرى بمقاطعتي. للصبر حدود، لن أصمت هذه المرة. يا ليتني صمت، لا أعرف كيف حدث ذلك. يا للهول! سهاد مطروحة أرضًا أمامي، هل ارتكبت جريمة قتل للتو؟ هل يحدث ذلك لمجرد أنني فتحت الكتاب؟ وفي تلك اللحظة، ومقولة أن تأثير الكتاب ينبع عن نواياك تتردد في أذني، يجب أن أبحث في هذا الموضوع لأنهيه عند حده، بدلاً من أن ينهيني. ما هذا الدوار الذي قد أصابني فجأة؟ هل حقًا قد انتصر علي ذلك الكتاب؟ هل هذه نهاية قصتي؟ لم أرد أن تنتهي بهذا الشكل. وها هي آخر كلمات أنطقها: أشهد أن لا إله إلا الله........

فتحت عيني ببطء، وسط ضوء أبيض مُزعج يخترق جفوني، فوجدت نفسي في غرفة مظلمة مليئة بالصور المرعبة. كانت الألوان السوداء تغلف كل شيء، وكأن الظلام يحكم البيئة بأكملها. وفي زاوية الغرفة، اكتشفت دفترًا ورديَ اللون، يبدو غريبًا جداً بالنسبة لهذا المكان المروع دون تردد، فتحت صفحةً عشوائية من الدفتر الغامض، لا تحمل سوى عنوانًا مثيرًا للاهتمام: "يوم بائس". كانت تلك الكلمات كفيلة بإثارة فضولي وأنا أتساءل عن صاحبة هذا الدفتر وماضيها المشوش وهذا ما كتب بداخله

“اليوم كان يومًا عاديًا في المدرسة، ولكن لا يمكنني تجاهل كيف أن كل شيء يبدو أسهل بكثير بالنسبة لي. لم أستطع تجاهل حقيقة أن الجميع يبدون يحبونها، كما لو أنها تحمل قطعة من الشمس معها في كل مكان تذهب إليه. يبدو أن الحظ يبتسم لها دائمًا، بينما أنا هنا، محاطة بظلال اللامبالاة والنسيان. أشعر بالغيرة تتصاعد داخلي كلما رأيتها تبتسم، تحصل على الثناء، أو حتى عندما تتلقى اهتمامًا. لماذا لا يمكنني أن أكون مثلها؟ لماذا يجب أن تكون هي المحور الذي يدور حوله العالم؟ أشعر بالجشع والرغبة في أخذ كل شيء منها، لجعل الأمور تبدو أفضل بالنسبة لي لمرة واحدة على الأقل. أريد أن أعيش في عالمها، أريد أن أكون مثلها، أو حتى أفضل منها”.

الكلام يبدو سوداوياً بالنسبة للدفتر يجلب غلافه السعادة. بدأت أشعر بأنفاس تتصاعد من خلفي، وهل التفت خلفي أم سألقى حتفي؟ انطفأت الأضواء، والرعب يزداد. أمسكني أحدٌ من يدي وسحبني بقوة كبيرة جداً وبطريقة عنيفة. دقات قلبي تتسارع، فقدت وعيي مجددًا، ولكن أين أنا؟ ماذا سيحدث لي؟ عاد وعيي مجددًا، ولم أر نفسي إلا محاصرة على كرسي خشبي. وأشعر أن هناك جسمًا أمامي، ولكن الظلام كان معتما لدرجة أنني بدأت أشك أنني قد أصبحت عمياء. بدأ شخصٌ ما بالتحدث. قال: "ماذا تفعلين هنا؟" مهلاً، أنا أعرف ذلك الصوت! لا، مهلاً سهاد! مستحيل! كيف تفعلين شيئًا كهذا بي؟ قلت ذلك وعيناي ممزقة بالدموع.

قلت لها: هل كتبت عني في يومياتك؟ هل تعتقدين أنك تستحقين أن تعيشي حياتي؟

سهاد: كيف عرفتِ أنني كتبت عنك؟ لقد تقابلنا للتو في هذه المدرسة الجديدة.

وكان ردي: لا أعرف، ولكن أنا متأكدة أنها لها علاقة بي بطريقة ما.

سهاد: أنا أعرفك من زمن بعيد (وضحكت ضحكة عالية مليئة بالسخرية).

كفاك كذاباً! لم أراكِ من قبل.

سهاد: ههه، نعم بالطبع! تريدين أخذ الاهتمام من الناس، ولا تريدين حتى الاهتمام بهم. لقد كنت زميلتك في مدرستك القديمة، جلستُ بجانبكِ كل يوم، وكل حصة، وكل دقيقة، وكل ثانية، ولم تعيريني ولا ذرة اهتمام. حاولتُ التحدث معكِ، ولم تفعلي شيئًا سوى إعطائي تلك الابتسامة المزيفة. تظنين أنكِ بذكائكِ وجمالكِ ستحكمين العالم، يالسخرية! هل تعلمين أن كل الجحيم الذي يحدث الآن في حياتكِ هو بسببي؟ نعم، بسببي من الكتاب إلى تلك التخيلات.

"مهلاً، ألم أطرحكِ أرضًا في الصف؟ حتى فقدتي وعيكِ!".

سهاد: قالت وهي تهمس في أذني جملة :"فقدرته على التأثير تنبع من نواياكِ الخفية".

هنا أدركتُ أن سهاد ليست الفتاة التي كنتُ أظنها ستكون رفيقة دربي، جميع أمالي وخططي لم تكن في المكان الصحيح. هل هي لعنة الحظ؟ لماذا تقربتُ منها دون الاستماع لصوتي الداخلي؟ بدأتُ الانهيار في البكاء، وأرجوها أن تخرجني من جحيم هذا الكتاب الذي لم أفهمه بعد، فأنا حتى لم استطع قراءة حرفٍ واحدٍ منه. بعد استجماع قواي، قلتُ لها وأنا أحرك شفتاي بثقل شديد وبصوت بارد يملؤه الإرهاق: ما هو سر ذلك الكتاب؟

قالت: "أنت مسؤولة عما قلتِه للتو

أردتُ أن أنتقم منك، لذا ذهبتُ لشخصٍ مجهول وسألتُه بكل صراحة: أريد شيئاً يحول حياة عدوي إلى جحيم. فتكمن لعنة هذا الكتاب في قدرته على استقطاب نوايا القارئ الخفية والظلامية. فكلما فتح شخص الكتاب وكانت لديه نوايا سلبية أو خبيثة، زاد تأثير الكتاب عليه بشكل سلبي، مما يجعل الأحداث التي يفكر بها تتحول إلى واقع مروع يتسلل إلى حياته. ويُقال أن الكتاب يتحكم في عقل من يفتحه ويثير أعمق أفكارهم السوداوية، مما يؤدي في النهاية إلى انغماسهم في عالم الظلام والجنون. وبمجرد أن يتم تقديم الكتاب إلى شخص ما، يصبح للعنة قوة تُحكمه وتُحيله إلى الظلام، مهما كانت نواياه الأصلية. ذهبتُ إلى والدتك وقلتُ لها إنك نسيتِ معطفك في المدرسة، لذا قالت لي ادخليه إلى الغرفة، وفي أثناء ذلك وضعتُ ذلك الكتاب في مكتبة والدتك ، وأنتِ بكل غباء واستهتار فتحتِه، ويالك من حمقاء بحق!

ها أنتِ تقولين بنفسك نواياً خفية، جميعنا قد يمر بمشاعر كتلك دون دراية، ولَكن هنا يأتي دور الشخص العاقل الذي يتجنب تلك الأحاسيس ولا يسعى ليضر أي إنسان. لا يوجد شخصٌ سيء في هذه الغرفة غيركِ، كيف يمكن أن تكوني مليئة بهذا الغل والجشع؟

شعرتُ أن كلامي أغضبها كثيرًا، خفتُ أن ترتكب فعلًا شنيعًا بي لكنني تذكرتُ فجأة أنني أحمل في حقيبتي ذلك الكتاب. كان متوسط الحجم، لذا من الطبيعي أن يصدق الشخص أنه كتاب كباقي الكتب. استوقفتها أثناء استشاطها غضبًا، و قلتُ لها في أثناء ذلك الظلام العاتم "أنا حقًا آسفة إن كنت جعلتك تشعرين بذلك الألم". بدأتُ أخرج الكتاب بكل خفة، وقلتُ لها: "لدي حل لمشاكلك". فأخذت مني الكتاب بسرعة، وفتحتُه. للأسف، كانت نواياها خبيثة جدًا. رأيتُ ضوءًا بدأ يظهر، وكان ذلك الضوء ساطعًا جدًا، وبدأتُ ملامحها تظهر، حتى اختفت سهاد بلمح البصر. ماذا فعلتُ للتو؟ حاولتُ فك الحبال الملتفة حولي، والتي كادت تعصرني من قوتها، وحاولتُ الخروج من ذلك المكان، ولكن قبل خروجي، شغلتُ الأضواء مجددًا، وقد ظهرت لي صورة سهاد معلقة على الحائط وهي تبتسم. بدأتُ أشعر بالندم عما فعلته. هل هذه نهاية قصتها؟ من حق كل شخص أن ينهي قصته بالطريقة التي يحبها، وأنا لقد تعديت على حقها بذلك.

ومن خلال ذلك السرد المظلم، أدركتُ أن الحياة ليست سوى مسرح للصراع بين الضوء والظلام. من خلال مصير سهاد الذي تلاشى في غياهب الكتاب الملعون، نجد أن الجشع والغيرة ليست سوى أدوات تؤدي إلى نهاية مأساوية.

تذكرتُ الآن قولًا قديمًا يقول: "من يلعب بالنار يحترق". وهذا ما حدث مع سهاد الذي أحاطت بها رغباتها المظلمة واستهوتها الأماني الشخصية، فاستقبلت النهاية بألم ووحدة.

ومن هنا، يتعين علينا أن نستفيق وندرك أن الحياة لا تكون سوى مرآة لما في أعماقنا. فلنتجاوز الجشع والغيرة، ولنسعى جاهدين لنكون أشخاصًا أفضل، ولنتبنى قيم العطاء والتضحية والتسامح.

لنغلق هذه القصة التي أحكيها لكم بأمل في أن يكون القادم أجمل، وأن نجد النور في أعماق الظلام

مهلا!
ولكن
ما
الذي
حدث
حقاً
لسهاد!؟